

مجالات التقوى كمسئولية

الاستاذ عبدالجواد خلف عبدالجواد -

ان المناظر فى آيات التقوى يدرك للوهلة الاولى أنها شاملة لجميع المجالات الاعتقادية، والسياسية، والمالية، والحرية، والعملية، كما أنها شملت جميع الاصلاحات الفردية والاسرية والاجتماعية، بحيث يمكنه القول بانه لم يبق مجال من مجالات الحياة الا و للتقوى فيه اتجاه واضح و أثر بارز، تدل عليه أكثر من آية صريحة فى نصها أو دلالتها، مما يؤكد حقيقة المسئولية فى نظرية التقوى، و دورها العملى فى توحيد السلوك الفردى والجماعى حسب ما سنلمسه من دراستنا التالية لهذه المجالات .

اولا : الامور الاعتقادية :

(١) الايمان :

انك لو تدبرت الوجود الانسانى كله، لرأيت أن له غاية فوق عمارة الكون والاستخلاف فى الارض .

هذه الغاية هى الايمان بخالق الوجود، والاقرار بالعبودية لصانع الكون بما فيه و من فيه .

ذلك أن تسخير هذا الكون العظيم لهذا المخلوق البشرى الذى توفرت له درجة عالية من الفكر و النظر و التدبر — أمر يستدعى بالضرورة تساؤلا سريعا . .

لما ذا خلق الانسان، و سخر له الكون كله بما عليه وما فيه ؟ و الجواب

ليس صعبا . . حيث يقدمه القرآن الكريم لنا . .

- ١ - "وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين(١)،، .
- ٢ - "أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا و أنكم اليينا لا ترجعون(٢)،، ؟

وما دام هذا هو مقصد الارادة الالهية من خلق الانسان فان هذا الانسان مطالب بتصحيح عقيدته قبل الخالق المدبر لهذا الكون بافراده بالوحدانية، والاقرار بالعبودية له جل شأنه .

و نعى بهذا الانسان مطلق الجنس، سواء كان فردا أو مجموعا، حاكما او محكوما .

و اذا كان هذا هو غاية الوجود الانساني فان دور "التقوى"، - كأساس عملي في الواقع الفرد والمجتمع - هو وسيلة هذه الغاية !

حيث يحتاج هذا الوجود الى مراقبة دقيقة لكل مسلك ناشئ عنه، تركز على أن الايمان هو حقيقة الحقائق التي تتولى "التقوى"، مسئولية المراقبة لصالحها، و توجيه السلوك نحوها .

لقد تناولت التقوى - كأس للمسئولية - جانب الايمان بالله، و تصحيح العقيدة تجاهه في أكثر من ستين آية تعتمد على الركائز الآتية :-

(١) أن القاعدة العريضة للوجود الانساني تقوم على تصحيح العقيدة تجاه خالق هذا الوجود، و أن مهمة التقوى و دورها في هذا الجانب هي أن تنطلق في ظل هذه العقيدة السليمة و تدور في فلكها حيث دارت :

١ - "وان تؤمنوا و تتقوا فلکم أجر عظیم (٣) ،،"

٢ - "و ان تؤمنوا يؤتکم أجورکم ولا یسألکم أسوالکم (٤) ،،" .

(٢) سوق الآيات البينات، و الدلائل الكونية المعجزة تأكيدا لمسئولية الانسان تجاه هذا الايمان .

١ - "ان فی اختلاف الليل و النهار وما خلق الله فی السموات و الارض لآيات لقوم یتقون (٥) ،،" .

٢ - "ولقد ضربنا للناس فی هذا القرآن من کل مثل لعلهم یتذكرون . قرآنا عربیا غیر ذی عوج لعلهم یتقون (٦) ،،" .

٣ - "واتقوا الذی أمدکم بما تعلمون . أمدکم بأنعام و بنین . و جنات و عیون (٧) .

(٣) حصن البشرية جميعا على أن تكون مسئوليتها الاولى هو مراعاة هذه الحقيقة قبل كل شیء .

و لهذا كانت رسالات السماء متجهة بادی ذی بدء إلى تقرير ذلك مستدللات بما حول الانسان من كون بهیء و مسخر لخدمته :

١ - "قال یا قوم اعبدوا الله ما لکم من اله غیره أفلاتتقون (٨) ،،" .

ب - "یا أيها الناس اعبدوا ربکم الذی خلقکم و الذین من قبلکم لعلکم تتقون (٩) ،،" .

ج - "قل من یرزقکم من السماء و الارض أمن یملك السمع و الأبصار و من یرزق الحی من المیت و یرزق المیت من الحی، و من یدبر

الامر فيقولون الله فقل أفلاتتقون(١٠)،، .

د- قل من رب السموات السبع و رب العرش العظيم . فيقولون الله
قل أفلا تتقون(١١)،،

(٤) أن مسؤولية التقوى تجاه الايمان مسؤولية عامة و شاملة :

يتحملها الانسان كفرد، و يتحملها المجتمع كخلية كبرى، و تتحملها
الدولة باعتبارها سلطة أمرة، و سلطة مراقبة لتنفيذ الأوامر .

كما أنها مسؤولية عامة و شاملة تجاه الايمان بما يشمله تعبير الايمان من
خصائص تعارفت عليها الشرائع السماوية و ضمنها الاسلام جميع تهيئاته
و أوامره، ، فهي تشمل .

١- الايمان بالله الواحد الذى لارب غيره، ولا معبود سواه، المسيطر على
الكون بشموسه وأقماره، وعوالمه و أقطاره، والمهيمن على مافيه من مخلوقات وأحياء
دائبة السعى مقدرة الرزق لا يحيط بعلمها الا هو

١ - ”أن أنذروا أنه لا اله الا أنا فاتقون(١٢)،،

ب- الايمان اليقيني الذى لا يتزعزع أن كل ما يصدر عن الله الواحد
الى المؤمن انما هي أخبار مسلمة الحقائق :

يستوى فيها أن تكون محققة بالمشاهدة والعيان، كالايان بالرسل و الكتب
السماوية المنزلة عليهم، و معجزاتهم المعصدة لرسالاتهم، و بانهم بشر أوحى
اليهم ليس لهم مع الله - تعالى - نسب ولا شركة من ملك .

كما يستوى فيها أن تكون أخبار عن عوالم غيبية غير مدركة بحس ولا

شاهدة، بل يكفي فيها أن تكون أخبارا صادرة بطريق الوحي الصحيح عن رب العزة جل وعلا، فتشمل الايمان بوجود عوالم غير الانسان خلقها الله عزوجل، و ان غابت رؤيتها و حقيقتها عن عين الانسان المجردة المحدودة كالايان بالملائكة والايان بالجن .

و تشمل مسؤولية الايمان هنا، الايمان بان الدنيا داربلاء و اختبار . . و انها و ان طال العهد بها الى زوال . . حيث يقوم على أنقاص زوالها يوم القيامة بما فيه من بعث و نشور و حساب، و جنة و نار - وما ورد في اوصافها جميعا مما لا يتطرق اليه شك المومن بحال من الأحوال .

والايان بما أخبر عن المغيبات ان لم يرتفع الى مستوى الايمان بالمشاهدات فان المسؤولية قبل الايمان كله تصبح عديمة الجدوى !

وما جدوى الايمان بالله . . اذا لم يصحبه ايمان بكل ما يخبر به الله على لسان رسله سماغاب عن الأعين وما حضر . . ؟

١ - "ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق و المغرب و لكن البر من آمن بالله و الملائكة و الكتاب و النبيين و أتى المال على حبه ذوى القربى و اليتامى و المساكين و بن السبيل و السائلين و فى الرقاب و أقام الصلاة و أتى الزكاة و الموفون بعهدهم اذا عاهدوا و الصابرين فى البأساء و الصراء و حين البأس أولئك الذين صدقوا أولئك هم المتقون(١٣) ،، .

(ه) فاذا تقررت قاعدة الايمان على هذه الصورة كان على (المجتمع بأكمله) أن يلتزموا بمسئوليتهم تجاه هذا الايمان :

١ - "فان اتقوا الله ان كنتم موسىين (١٤)" .

٢ - " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون (١٥)" .

و على هذا (فالمجتمع باكملة) يجب أن يكون في مسؤولية حريصا على نبذ
الارجاس و الخبائث، والظواهر الاخلاقية الشاذة :

١ - "فاتقوا الله و اطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على
رب العالمين . أتاتون الذكران من العالمين و تذررون ما خلق لكم
ربكم من زواجكم بل أنتم قوم عادون (١٦)" .

٢ - "فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد (١٧)" .

(٦) و اذا صحت قاعدة الايمان في المجتمع، وضح سلوك الافراد قبل
مسئوليتهم تجاه هذه القاعدة الهامة أصبح كل فرد فيه على درجة عالية من الوعي
والاداء للمسؤولية و صيانتها في معاشهم اليومي الدائب، وما عليهم بعد ذلك
من جناح ما دامت درجة مراقبتهم لسلوكهم تسير في معدلها الطبيعي :

١ - "ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات جناح فيما طعموا اذا
ما اتقوا و آمنوا و عملوا الصالحات ثم اتقوا و آمنوا ثم اتقوا و أحسنوا
و الله يحب المحسنين (١٨)" .

أما اذا فسدت هذه لعقيدة و نكص المجتمع بافراده عن الايمان فلاقيمة بعد
ذلك لأي عمل ما ؟ وان بدا هذا العمل جادا شمرا خلافا تقوم على رأسه دولة
قوية عملاقة — لأن فساد العقيدة يعنى فساد الأساس لهذا البنيان و ان ظهر

شاسخا! اذ هو رغم شموخه بنيان قائم على اسواج بحر متلاطم، وما يظهر لهذا
البنيان من قوة و رونق انما هو ظهور لابصار ترى الظاهر و تعمى عن الحقائق . .
لهى رؤى بصر لا رؤى بصيرة . . !

و لتندبر هذه الآية الجامعة فى هذ المعنى :

١ - "فكيف تتقون ان كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا(١١)،" ؟

النكوص عن المسئولية تجاه الايمان :

ان المجتمع المبلغ بحقائق الايمان، و الذى سبقت له الدلائل فاقربها ثم
نكص عنها مجتمع فاسد المزاج يرى الحق و يعرض عنه، و يرى الفساد فيهبواه و
يقبل عليه، و هو - بهذا - مجتمع يضع بيده اول جرثومة تتكاثر فى جسده لتقضى
عليه .

و لقد أوضح القرآن الكريم من خلال الالتزام بمسئولية التقوى آن أى
مجتمع من المجتمعات ينكص على عقبيه انما يفعل ذلك بمحض ارادته حيث لا يمكن
للسماء أن تضله أبدا، و انما هى تقدم له العون على الايمان و الحصن عليه مرة
بعد مرة، و تعطيه من الدلائل، و توجيهات التقوى ما هو كفيل باصلاح بنيانه
و اقامة عمدة .

فاذا رفض المجتمع و نكص فقد اضل نفسه و اغواها :

١ - "وما كان الله ليضل قوما اذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون ان

الله بكل شىء عليم(٢٠)،"

و ما ذا تجنى المجتمعات - أفرادا و شعوبا - من بنيان لم يتأسس على

العقيدة الصحيحة ؟

و ما ظنك بعمل خير - أو له بريق الخير و لمعان البر و الاصلاح - من أسور السياسة و الحرب و المال و بينما أعمدة العقيدة فيه مهشمة أو هي رصاد؟ كانت مجتمعات الكفر قائمة قبل الاسلام، و كانت حركات الاصلاح فيها ايضا قائمة على قدم و ساق، لم يخل مجتمع فيها من ملك مصلح يرعى شئون الافراد، و يبني دولته بناء قويا، كما لم تخل هذه المجتمعات من أفراد أو جماعات مصلحة تسير و البر في ركابها . و بعد الاسلام و هذه العصور المتأخرة، نشأت في الشرق و الغرب مجتمعات بعضها لا ترجو لقاء الله تعالى .

ارتدوا عن عقيدة الايمان بل راحو يسخرون منها، و يهزءون بها، و عزهم في ذلك ما أقاموه من صروح عالية، و دروع فولاذية واقية، و ما صنعوه من أسلحة فتاكة مدمرة، تمتد أزرعها الى كل بقعة من بقاع هذه المعمورة التي هيئت كاستقر لبنى الانسان، كما لم يتميها نظيره لاي مجتمع مرتد أى عصر من العصور، أو جيل من الأجيال .

و لكن هؤلاء و أولئك و قد خلت مجتمعاتهم من دعائم الايمان، و ركائز التوحيد . . فان التقييم الصحيح لهم أن ما صنعوه من القوة، و ما أقاموه من البنيان الحربى، و ما حسبوه بزعمهم أنه ارتقاء، انما هو فى واقعة كسراب بقيمة، لن تجد له أثرا ان ذهبت تنهك منه، ولن يجدوا له قيمة يوم يسألون عن حقيقته و أساسه و دعائم الايمان فيه، و هم - فى نظرنا نحن المسلمين - سيسألون لا محالة، و سينذسون على ما أنفقوه فى الدنيا على عمل قائم على هباء منثور:

١ - ”و قال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم و عتوا عتوا كبيرا . يوم يرون الملائكة

لا بشرى يومئذ للمجرمين، و يقولون حجرا محجورا . و قدسنا الى
ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا(٢١)»، .

و عليك أن تتدبر هنا تقييم الخالق سبحانه و تعالى لهؤلاء المكابرين،
و أن تقف طويلا لتتأمل هذا التقييم، بقدر ما وقفت طويلا لتتأمل ما أقاموه من
بنيان، و ما شيدوه من صروح . . !

و يقينى أنك و قفت طويلا أمام صروحهم، و شدك الانتباه الى قوتهم و سلطانهم
فى الارض، بل أنت تقترب الى حد الاعجاب الشديد بهم، و الميل لسلطانهم،
فالنفس مع السلطان تميل، و امام تيار القوة تنجرف . .

ولكن حسبى بك أن أضعك أمام تقييم الله العليم الخبير لهم، أن أردك
عن الغلو فى تأمل المظهر الى الاعتدال فى تأمل الجوهر، و أن أصرفك عن
مشاهدة الحال الى تدبر المآل : ”و قد منا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء
منثورا، !

فلا وزن فى الحقيقة لما تراه من أعمالهم، ولا قيمة لها فى نظر الله سبحانه
و تعالى ما دامت هذه الأعمال كلها قد أقيمت فى ظلال الالحاد . . .
و الأجدر أن نخرج من تأملاتنا بسؤالين :

ما ضر هولاء لو أقيم هذا البنيان العظيم على تقوى الله ؟ ! و ما ضرنا —
أن كنا على تقوى الله — أن نقيم لنا بنيانا عظيما يهتف بذكر الله ؟ !

١ - ”أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله و رضوان خير أم من أسس بنيانه
على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم و الله لا يهدى القوم الظالمين(٢٢)»، .

و لعلك تلمس من التساولين - و قد صيغا في سياق التمنى - أن منطلق
الايمن بالله تعالى ليس معناه رفض العمران، ولا نبذ الرقى والحضارة، ولا ترك
التمدن والقوة والبأس . .

و لكن البأس، و الرقى، و العمران أمور لا قيمة لها اذا نبتت و نمت تحت
شعار الالحاد، وانكار الله سبحانه و تعالى، رغم دلائله في انفسنا و في الآفاق . .
عندئذ تنكشف لك الحقيقة ولا يخذك بريق بأسهم .

١ - "بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا و قلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم
لا يعقلون(٢٣)" .

و اذا أصاب - اصحاب هذه المجتمعات - غرور التسلح الملحد فلا تعجب . .
فأى مجتمع فى تاريخ ال انسانية منذ نشأتها تسلح بالا لحاد، أو ألد اذ رأى قوة
سلطانه و جبروت تسلحه و لم يصبه الغرور؟ !

و لكن حسب هؤلاء أن يفيقوا من سهوتهم - و أن يعودوا الى ايمانهم . .
فقد روى "الامام أحمد فى مسنده عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه -
عن النبى - صلى الله عليه وسلم قال : "مثل المؤمن و مثل الايمان كمثل الفرس
فى آخيته - يجول ثم يرجع الى آخيته، و ان المؤمن يسهوثم يرجع الى الايمان،
فأطعموا طعابكم الاتقياء، و أو لوا .حروفكم المؤمنين(٢٤)" .

و مسئولية التقوى هنا . . أو دورها فى هذا السبيل أنها تدعوك الى الايمان
اولا و قبل كل شىء . . !

فلا تقوى مع الالحاد فى الايمان الصحيح بافراد الخالق بالوحدانية . . !
حيث لا تنفع مع الكفر طاعة . . !

١ - ان الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء و من يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا (٢٥)،،

لعل في هذه النقطة بالذات يبدو دور ”التقوى“ بمفهومها العملي بمعنى : ”مراجعة النفس“، أو مراقبة السلوك، و قل : ”تصحيح المسلك الشخصى نحو العقيدة الصحيحة“، ؟ و تعقل هذا التعبير الفنى الدقيق فيما رواه الامام أحمد بطريقه من حديث طويل عن المغيرة بن عبدالله الشكرى عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم - قال :

”اتق الله . . . لا تشرك بالله شيئا“، (٢٦) !

وأى مأخذ يفهم من تعبير ”التقوى“، غير أنها طريق عملى لمسئولية انسانية على أعلى المراتب . . تصحح المسارات، و توجه المسالك . . و أول ما تصححه و توجهه هو ارساء ببيان العقيدة الصحيحة على أعمدة ثابتة . . !

و لنقف فى ذلك على ما رواه أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه - قال :

قرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم هذه الآية (هو أهل التقوى و أهل المغفرة) قال : قال ربكم : أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معى اله فمن اتقى أن يجعل معى الها كان أهل أن أغفر له (٢٧)،،

إذا فالذى يجب أن ندركه عن ”التقوى“، تجاه الايمان : أن التقوى بالنسبة للايمان كالكوكب بالنسبة لشمسه التى يدور فى فلكها حيث تتخذ التقوى مسارا لها حول الايمان تدور فى فلكه و تتبع اتجاهه الذى هى له . . فلا تقوى مع عقيدة فاسدة . . !

على أن العقيدة الصحيحة بلا تقوى - عقيدة مفكرة كقصر
مشيد بلا سكان ! . .

حيث يعوز الايمان جانب التنفيذ العملي، و ينقصه السلوك الفعلي . .
و أولى الناس بهذا الايمان و بهذا الدين هم السالكون في دربه، المنفذون لتعليمه
المحافظون على توجيهاته، المقيمون لحدوده . ”ان أولى الناس بي المتقون . .
من كانوا و حيث كانوا(٢٨)“ .

المراجع

- (١) الذريات الاية : ٥٦ - ٥٨ :
- (٢) المؤمنون الاية : ١١٥ :
- (٣) آل عمران الاية : ١٧٩ :
- (٤) محمد الاية : ٣٦ :
- (٥) يونس الاية : ٦ :
- (٦) الزمر الاية : ٢٧ - ٧٨ :
- (٧) الشعراء الاية : ١٣٢ - ١٣٤ :
- (٨) الاعراف الاية : ١٥ :
- (٩) البقرة الاية : ٢١ :
- (١٠) يونس الاية : ٣١ :
- (١١) المومنون الاية : ١٧ :
- (١٢) النمل الاية : ٢ :
- (١٣) البقرة الاية : ١٧٧ :
- (١٤) المائدة الاية : ١١٢ :
- (١٥) آل عمران الاية : ١١٢ :
- (١٦) الشعراء الاية : ١٦٣ - ١٦٦ :

- (١٧) هود الآية : ٧٨ :
(١٨) المائدة الآية : ٩٣ :
(١٩) المزمل الآية : ١٧ :
(٢٠) التوبة الآية : ١١٥ :
(٢١) الفرقان الآية :
(٢٢) التوبة الآية : ١٠٩ :
(٢٣) الحشر الآية : ١٣ :
(٢٤) ج : ٣ : ص : ٥٥ :
(٢٥) النساء الآية : ١١٦ :
(٢٦) ج : ٦ : ص : ٣٨٤ :
(٢٧) ج : ٣ : ص : ١٤٢ :
(٢٨) مسند بن جنبل ج ٥ ص ١٦٠
-